حفريات

٢٠٢٣

التسامح.. نحو تحرير المجتمعات من التعصب

عبد السلام بنعبد العالي
كاتب مغربي

التسامح علاقة مع الذات قبل أن تكون علاقة مع الآخر

لا ينبغي أن ننسى أنّ مفهوم التسامح تولّد خلال حركة الإصلاح الديني الأوروبية، ليعبر عن تغيّر في الذهنية تمخض عن علاقة جديدة هي علاقة الاعتراف المتبادل بين القوى التي استمرت تتصارع طوال القرن السادس عشر داخل الدين الواحد.

لا عجب أن يظلّ المفهوم حاملاً لرواسب الإشكالية الدينية التي نشأ في حضنها، والتي جعلت منه، قبل كل شيء نداء «للمحبة والرحمة والإحسان للناس بعامة»، كما يؤكد جون لوك في رسالته الشهيرة. وعلى الرغم من ذلك، لم يلبث المفهوم أن شُحن بحمولات تجاوزت

«التسامح يجعل التفرّد ضعيفاً أمام قوة التعدد، والتوحّد ضيقاً أمام شساعة التنوع»

الإطار الديني لتطال المجال السياسي والاجتماعي والثقافي، وليؤدي في النهاية إلى التسليم بالحق في الاختلاف في الاعتقاد والرأي، والاعتراف للفرد- المواطن بالحق في التعبير داخل الفضاء المدني عن الآراء الدينية والسياسية والفلسفية التي يعتنقها بمحض اختياره، وليغدو دعامة من دعائم الحداثة السياسية والفكرية، ولتتوسع حقول استعماله بفضل مساهمات مفكرين كبار أمثال؛ سبينوزا وروسو وڤولتير.

لكن على الرغم من هذا التوسع، ظل المفهوم شديد الارتباط بالمعنى الأخلاقي فلم يبتعد كثيراً عن مفهومي المحبة والإحسان. الأمر الذي حال دون فعاليته حتى عند من يعتبرون أنفسهم ناحتيه ومولّديه. ويكفي أن ننتبه إلى ما يعرفه الغرب المعاصر، سواء في علاقته بمستعمراته السابقة، أو بالأقليات المتعايشة معه من مظاهر اللاتسامح، كي لا نقول التعصّب والعنصرية؛ حيث يشكل عدم الاعتراف بالآخر، وبالخصوصيات الثقافية صفات ملازمة لكثير من المواقف. مما يستوجب في نظرنا ضرورة إرساء المفهوم على أسس فلسفية حتى لا يظل فحسب مجرد إلزام أخلاقي، وحاجة تفرضها الضرورات السياسية والقانونية، وكي ينتقل من مجرد التكرم والسخاء إلى الاعتراف بالحق، بل إلى احترامه.

هذا الارتفاع باللفظ من مجرد الدلالة على التحمل والتقبل لواقع مفروض، إلى مستوى الحق والمشروعية يستلزم نحت مفهوم يقوم على أسس عقلانية تسمح لنا بحد أدنى من الإجماع. والحال أن المفهوم ما زال، في نظرنا، مدار خلافات جوهرية. فإذا كان الكل يجمع اليوم على أن التسامح هو قبول الاختلاف، إلا أن الخلاف يبدأ في تحديد مفهوم الاختلاف ذاته. ذلك أننا نستطيع أن نميز بين مفهومين عن الاختلاف يقابلان مفهومين عن التسامح: التسامح الذي يتقبل الآخر و«يتحمله»؛ لأنه لا يبالي به، ثم التسامح كانفتاح على الآخر في اختلافه، واقتراب منه في ابتعاده.

يُكرّس المفهوم الأول مفهوماً عن الاختلاف كمجرد تميّز وتمايز، بينما يسعى الثاني إلى أن يجعل من التسامح انشغالاً بالآخر، ومن الاختلاف اقتراباً منه وانفتاحاً عليه. فبينما تنتظم الأطراف في التمايز

«مفهوم التسامح ظلّ حاملاً لرواسب الإشكالية الدينية التي نشأ في حضنها، والتي جعلت منه، نداء للمحبة والرحمة والإحسان للناس بعامة»

وفق سلم عمودي متدرجة متفاضلة، فهي تمتد في الاختلاف في مستوى أفقي متباينة متصالحة. التمايز يتم بين هويات متباعدة وكيانات منفصلة. أما الاختلاف، فينخر الكائن ذاته ليضع الآخر في صميمه. في الاختلاف إذاً يقطن الآخر الذات، والتعدد الهوية، فهو إذ يبعد الأطراف فيما بينها، يبعد كلا منها عن نفسه.

ليس التسامح إذاً عدم اكتراث بالآخر و«لامبالاة» به، وإنما تقبّل لكيفيات مغايرة في التفكير والسلوك مع غض الطرف عما يجعلها تخالفنا. ربما ابتدأت فكرة التسامح انطلاقاً من هذا المفهوم، وهو ما نجده حتى عند بعض المؤسسين. كان هؤلاء يقولون: إذا لم تستطع أمام الشر حيلة، فتغاض عنه، حتى إن كنتَ تراه كذلك، فذلك هو السبيل لتحمّل الآخر والعيش إلى جانبه. واضح أن من شأن هذا الفهم أن يوقعنا في نسبية ثقافية تصدر أساساً، لا عن عدم إقرار برأي الآخر، وإنما عن الانطلاق من أنّ الأنا تضع نفسها جهة الحقيقة والخير، مبدية نوعاً من التساهل -وهذا هو اللفظ الذي عبر به منذ بداية القرن الماضي فرح أنطون عن المفهوم- و«التنازل»، كي لا نقول «التغاضي»، إزاء الآخر، متحملة «كما يقول الاشتقاق اللاتيني للكلمة:tolerare supporter اختلافاته وفروقه».

واضح أنّ هذا التصور يفترض نظرة دونية إلى الآخر، وموقفاً متعالياً من الأقليات؛ بل نظرة متضخمة إلى الذات، وشعوراً مفرطاً بمركزيتها.

لن نتخلص من روح التمركز هذه، إلا إن نحن سلّمنا بأنّ الاختلاف الذي يقوم عليه التسامح، قبل أن يعني الآخر، فهو يعني الذات، قبل أن يكون حركة توجهنا نحو الآخر، فهو حركة تبعدنا عن ذواتنا، فتحول بينها وبين التعصب لرأي، والتشبث بمنظور، والتعلق بنموذج، وتمنعها من أن تضع نفسها مركز العالم، وجهة الحقيقة والخير والجمال، وتطرح الآخر في الضفة الأخرى.

على هذا النحو يغدو التسامح أساساً تسامحاً مع الذات، وانفصالاً عن كل تمركز، وابتعاداً عن كل تعصب ووثوقية

و»انشغال» بالذات؛ بل إنه يغدو اتهاماً متواصلاً للذات قبل اتهام الغير. هذا التخطيء للذات قبل تخطيء الآخر، وهذا الإحساس بأنّ «علينا بشكل دائم أن نكون مستعدين لاكتشاف أننا قد أخطأنا»، كما يقول كارل بوبر، هو الذي يمكننا من أن نخالف أنفسنا ونكون على استعداد كي نقبل في أنفسنا آخر.

لا ينبغي أن يفهم من هذا الردّ لمسألة التسامح إلى الذات وإحالتها عليها، دعوة إلى إحياء الحمولة اللاهوتية والأخلاقية التي تولَّد في حضنها المفهوم. فالأمر لا يتعلق بدعوة أخلاقية إلى نكران الذات وإلغائها، ولا بموقف أنطلوجي ينفي الهوية. فليس الهدف الوصول إلى حد لا نقول عنده أنا أو نحن، ليست الغاية أن يدفعنا قبول الاختلاف إلى محو الهوية، ليس الهدف نفي الوعي بالذات والشعور بالتمايز، وإنما الوصول إلى حيث لا تبقى قيمة كبرى للجهر بالأنا وإشهار الهوية وإبرازها في مقابل التنوع الذي نكون عليه.

ذلك أن التسامح يجعل التفرد ضعيفاً أمام قوة التعدد، والتوحد ضيقاً أمام شساعة التنوع، والاقتصار على الأنا فقراً أمام غنى الآخر، والانطواء على الذات سدّاً أمام لانهائية الأبعاد الممكنة، والاستقرار عند مقام بعينه ضياعا أمام رحابة التنقل، والاقتصار على الحاضر المتحرك هزالا أمام كثافة الزمن.

محمد جميل أحمد
كاتب سوداني

ما مصير التسامح والحوار في المجتمعات المفتوحة؟

رغم الصبغة الدينية التي تبدو للوهلة أولى، من كلمة «تسامح»، والتي عادة ما تقترن بكلمة الصفح والعفو، إلا أنّ مفهوم التسامح في العصور الحديثة يختزن الكثير من المعاني الإنسانية التي ترتبط بصورته التي صاغها بعض الفلاسفة الكبار في القرن العشرين؛ مثل الفيلسوف الإنجليزي كارل بوبر. فالتسامح، وفق دلالاته العصرية الحديثة، لا يتصل فقط بذلك المعنى الديني العفوي ذي الدلالة التي لا تعكس تكافؤاً بين الطرفين.

لقد أصبح التسامح، كما شكّلته صورة العلاقات الإنسانية في المجتمع البشري الحديث، مفهوماً يتجاوز المعاني البسيطة ليعكس دلالة وصيرورة تتصل بوعي العلاقات المركبة للمجتمعات الحديثة، وبما يحيل إلى أنّ تشكل المفهوم أصبح اليوم يعني مقتضيات كثيرة ترتبط

«يعد التسامح شكلاً من أشكال التعبير عن حياة تتميز بالتنوع والاختلاف والتعدد والتعايش كما يرتبط ارتباطاً عضوياً بالحياة المشتركة»

بحقوق الإنسان، كما ترتبط بالخبرة البشرية التي عرفت قيمة التسامح (بعد حروب واختلافات مجتمعية) كضرورة للتعايش في المجتمعات المفتوحة.

يرتبط التسامح، في تقديرنا، ارتباطاً عضوياً بالحياة المشتركة والمنفتحة للمجتمعات، وهو لذلك شكل من أشكال التعبير عن حياة تتميز بالتنوع والاختلاف والتعدد والتعايش.

والتسامح، كما عرفه الفيلسوف الفرنسي «فولتير»؛ هو: «النتيجة الحتمية لإدراكنا أنّنا لسنا معصومين من الخطأ البشر خطاؤون ونحن نخطئ طوال الوقت».

ولهذا فإنّ الفرد المتسامح حقاً هو الذي يدرك تلك الحقيقة في ذلك التعريف. وأنّ تسامح الفرد مع الآخرين لا يعني، فقط؛ قدرته على أن يكون متجاوزاً أو متحمِّلاً لاختلافهم معه، ولو على كرهٍ خفيّ منه، بل التسامح يعني: قبول الآخر المختلف كما هو، لا كما نتمنّاه نحن، وما نسقط على قبوله من ميول خاصة بنا.

بطبيعة الحال، إنّ التسامح كمفهوم حديث يحتاج إلى صناعة وتوطين وصيرورة في مجتمعاتنا، لاسيما مجتمعاتنا العربية، التي لا تدل علاقاتها البينية على رسوخ واضح لمفهوم التسامح بمعناه الحديث.

الانفتاح مصير المجتمعات

هناك ضرورة لوعي مفهوم التسامح وفق صيرورته الحديثة في مجتمعاتنا العربية اليوم. وإذا ما بدا متعذراً اليوم أو صعباً؛ اختبار التسامح كطريقة لعيش الحياة المجتمعية بين هويات مختلفة ومتعددة في المجتمع الواحد؛ فإنّ ذلك سيعني أيضاً انسدادات خطيرة في المصائر الكارثية المحتملة لمصير العلاقات البينية في تلك المجتمعات. ذلك أنّه قد تبين، وفق منطق الخبرة البشرية، أنّه مهما انعكست التباينات بين أفراد المجتمع في علاقات مضطربة وغير سوية؛ فإنّ ذلك المصير يمكن أن يكون مصيراً دائماً وأبدياً في غياب التسامح؛ ما يعني، كذلك، أنّه في النهاية لابد من التسامح لخروج مجتمعاتنا من نسق الأوتوقراطية والأحكام الانطباعية وعدم تقبل الآخرين فقط لمجرد اختلافهم.

«علينا توطين علاقات التسامح والصبر عليها وتأطيرها تأطيراً تربوياً وتعليمياً في أوساطنا المجتمعية عبر تجارب الخطأ والصواب»

إنّ لغياب التسامح، بمعناه الحيث، في مجتمعات المنطقة العربية اليوم شواهد كثيرة ووافرة فيما ينعكس في تلك المجتمعات؛ من ظواهر التخلف وتغليب منطق الرأي الواحد، وضعف التعبير عن عقلنة الحياة المدنية، وغيرها. وأمام هذه الحقائق الصادمة المخيبة للآمال في وتيرة العلاقات البنية المأزومة عموماً؛ يمكننا تفهم حاجتنا العميقة إلى التسامح الذي سيكون، عندئذ، ضرورةً لا ترفاً أو فائضاً من القول.

علينا توطين علاقات التسامح والصبر عليها وتأطيرها تأطيراً تربوياً وتعليمياً في أوساطنا المجتمعية عبر تجارب الخطأ والصواب، وصولاً إلى تأسيس هوية واضحة وبينة للتسامح في علاقاتنا البينية التي هي مظهر تجليات ذلك المفهوم.

لقد أصبح العالم اليوم مجتمعاً مفتوحاً، مهما تصورنا خلاف ذلك. وطبيعة المجتمع المفتوح ستضطر المجتمعات المغلقة في هذا العالم؛ إما إلى تقبل قيم التسامح واستيعابها، ولو بعد حين طال أم قصر، وإما الفناء في صراع خاسر مع العالم. ومن هنا سندرك، تماماً، أنّ مسألة توطين التسامح تُقيم في صلب العمل اليومي لتحسين علاقاتنا البينية باستمرار.

التسامح والحوار

بطبيعة الحال، ثمة علاقة وثيقة بين الحوار والتسامح؛ فالحوار هو آلية التسامح وهويته التي تجعل منه تعبيراً حقيقياً في العلاقات البينية للمجتمع.

لا تسامح بدون حوار، ولهذا فإنّ الرؤية الحوارية لمفهوم التسامح تكمن

«ستضطر طبيعة المجتمع المفتوح المجتمعات المغلقة إما إلى تقبل قيم التسامح واستيعابها وإما الفناء في صراع خاسر مع العالم »

أهميتها في سياق التفعيل المستمر لمبدأ الحوار والتأطير الفلسفي لضرورته في تطبيع علاقات التسامح البديلة لسوء التفاهم أو الخلاف، وحتى الصراع.

والحوار، بوصفه عملية تواصلية مستمرة تتجلى من خلالها هوية التسامح وضرورته وثمراته العظيمة؛ لا تنفك الحاجة إليه كمقدمة للوصول إلى قناعات بينية راسخة للجماعات والأفراد حيال قيمة التسامح، وتبيين الدلالات الحديثة لذلك المفهوم الذي أصبح اليوم هو الصيغة الأكثر استقطاباً لتناقضات المجتمع والجماعات والطوائف والمذاهب.

كما أنّ المبادئ الإنسانية هي، بالضرورة، مبادئ عابرة لجميع مجتمعات البشر وطوائفهم، ولكن تكمن الإشكاليات في سوء الفهم، والقناعات المسبقة، والسرديات المتعارضة حيال كل طائفة أو مجتمع عن الآخر. وكل هذه الإشكاليات، لا يمكن إزالتها إلا بتوطين مفهوم الحوار في نسيج مفهوم التسامح الإنساني عبر التصورات الفلسفية الحديثة لمفهوم التسامح وما يتصل به من صياغات تم تجريبها في المجتمعات المفتوحة، وأدت إلى نتائج إنسانية باهرة في تسكين الصراعات وإزالة سوء الفهم، ومن ثم تقبل الاختلاف كهوية أساسية للبشر : (ولايزالون مختلفين ولذلك خلقهم) كما تقول الآية القرآنية الكريمة.

جهاد حسين
كاتب سوداني

التسامح:
كيف تتحرر من الحكم على الآخرين؟

إنّ حاجتنا إلى التسامح تساوي حاجتنا إلى الحياة؛ إذ إنّ حياتنا تتحول إلى جحيم بغياب هذه القيمة كمفهوم يجمع الإنسانية فيما بينها، إنّه التحرر من الرغبات القاتلة والمتوحشة التي ليس ثمة ما يشبعها، لتصبح سيداً على نفسك بالوعي الذي لا يجعلك تخضع لقوى خارجية أيدلوجية كانت أم دينية متطرفة، تتحكم في رغباتك وتتلاعب بميولك وتصوراتك، إنّك مملوء بالشغف ومقبل على العطاء بلا شروط.

ثمة متاريس تقف أمام التسامح تتعلق بتكويننا الداخلي كبشر؛ إذ لا يمكننا أن نكون متسامحين ما لم نواجهها بوعي أعلى منها، يحررنا من سطوتها، والتخلص منها يعد شرطاً أساسياً للوصول إلى هذه الغاية:

نزعة الحكم والإحكام:

إننا في حالة نزوع دائم إلى أن نحكم قبضتنا على الآخرين بالحكم عليهم، ومن ثم إحكام القبضة عليهم، بتصنيفهم

«حياتنا تتحول إلى جحيم بغياب التسامح كمفهوم يجمع الإنسانية فيما بينها»

ووضعهم في قالب لا يمكن أن نقبله لأنفسنا، ويتحوّل حكمنا لهم إلى أبدية تحيط بهم من وجهة نظرنا؛ بل إننا نتسرع في الحكم دون أن نتعرف بما يكفي على الآخر، ونعلق على الأحداث دون أن نفهمها، إنّنا في عجالة من أمرنا في أن نرتب العالم الكبير بحسب تصوراتنا الصغيرة.

يُحكى أنّ شاباً جاء إلى ذي النون المصري، الصوفي المشهور، وقال له: «إنّ الصوفيين على خطأ، وليسوا أهل عبادة»، إلى جانب الكثير من الكلام الذي قاله، نزع ذو النون خاتماً من إصبعه، وأعطاه إياه طالباً منه أن يذهب ويبيعه إلى تجار أكشاك السوق، مقابل قطعة ذهبية على الأقل، وعندما ذهب لم يعرض عليه التجار الكثير، ولم يحصل إلا على قطعة فضية واحدة، فعاد أدراجه إلى ذنون، وأخبره بذلك، فطلب منه ذو النون أن يذهب بالخاتم إلى صائغ، وينظر كم سيدفع، فعرض الصائغ ألف قطعة ذهبية، فدهش الشاب، فقال له ذو النون: ها أنت ترى الآن أنّ معرفتك بالتصوف والصوفيين أشبه بمعرفة تجار الأكشاك بالجواهر النفيسة، فإن رغبت بتقييم الجواهر فعليك أن تصبح صائغاً.

وهكذا، بينما نضيع وقتاً طويلاً في أحكامنا، ثمة من ينغمسون في تجاربهم وحياتهم، ونحن نحكم على الأمور بينما نقف على هامشها، ونحدد من معنا ومن ضدنا من خلال أحكامنا، ومن المؤمن ومن الكافر بيننا، ومن سيكون من الفرقة الناجية، ومن سيهلك منا، وهذه التصورات التي نشكلها بمثابة قنبلة موقوتة أمام حصن التسامح الاجتماعي والثقافي، الذي يضمن تعدديتنا واعترافنا ببعضنا، الذي ينتج عنه العدالة؛ إذ لا يترتب على الاختلاف الفكري أو الديني عمل إقصائي أو ظلم حقوقي في المجتمع الواحد.

عندما يقول الله تعالى: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، نعلم خطورة أن نحكم على الأمور بجهالة، وبعمى بصيرة، وقلة

«يزهر التسامح وتتفتق بذرة الحب في الحياة كلما ماتت الأنا التي تحتكر لنفسها التفوق»

«ثمة متاريس تقف أمام التسامح ولا يمكننا أن نكون متسامحين ما لم نواجهها بوعي أعلى منها»

معرفة بها؛ فالآية لم تكن تعني أبداً أن نتوقف عن البحث والمعرفة فيما نجهل؛ بل هي تشجع ذلك بعدم الوقوف على باب الجهل وإلقاء الأحكام والآراء يميناً ويساراً.

جميعنا يعرف أنّ قاتل المفكر المصري فرج فودة، عندما سئل في المحكمة عن أسباب ارتكاب هذه الجريمة، قال ببساطة: «لأنه علماني»، ولم يكن يعرف ما تعنيه الكلمة سوى ما يتردد من جهل حولها؛ إنّها ببساطة تساوي الكفر بالنسبة إليه؛ إذ لم يكن مهتماً ليعرف بنفسه، لقد وقف على هامش الكلمة، وحكم بالموت من خلالها، وهنا تكمن خطورة أن نحكم من خلال وعينا المحدود على المفاهيم والأفكار.

الأنا «الإجيو»

يزهر التسامح وتتفتق بذرة الحب في الحياة، كلما ماتت «الأنا» التي تحتكر لنفسها التفوق، وتعتقد في ذاتها الكمال المطلق والمعرفة اللامحدودة، وتكون أكثر بشاعة عندما تصدر عنها أحكام قاتلة بشأن الآخرين.

يحكى أنّ رجلاً ذهب إلى الحج، ثم عاد إلى القرية، وأخبر أخاه بما شاهده من قلة تدين عند الآخرين، ويحمد الله على أنّ بلدهم الأكثر تديناً، وبالنظر إلى قريتهم، فإنّها الأكثر تديناً في البلد، وبالنظر إلى عشيرتهم فإنّها الأكثر تديناً في القرية، وبالنظر إلى عشيرتهم فهو وأخوه الأكثر تديناً في العشيرة، لتضيق الحلقة حتى يقول: وبالنظر إليك أجدني أكثر تديناً منك.

وهكذا تضيق حلقة التعددية الدينية عندما ترتبط الحقيقة ارتباطاً كلياً ونهائياً بالأنا؛ إذ تعرف نفسها من خلالها، وتعرف الحقيقة من خلال نفسها، وهكذا تتماهى الأنا مع الأفكار والرؤى حتى تحتكرها، وهكذا يفعل الكهنة ورجال الدين، والذين يتصدرون الفتوى، ويتبعهم الآخرون، وبالعودة إلى قصة قاتل فرج فودة؛ نجد أنّ دمه كان سهلاً ومباحاً من عدة شخصيات دينية تصدرت الفتوى، وخضع لها عقل القاتل، فكانت بالنسبة إليه هي الدين نفسه.

طارق أبو السعد
كاتب مصري

الطريق إلى التسامح..
هكذا قصّ فولتير حكاية
كشفت سوءات التعصب الديني

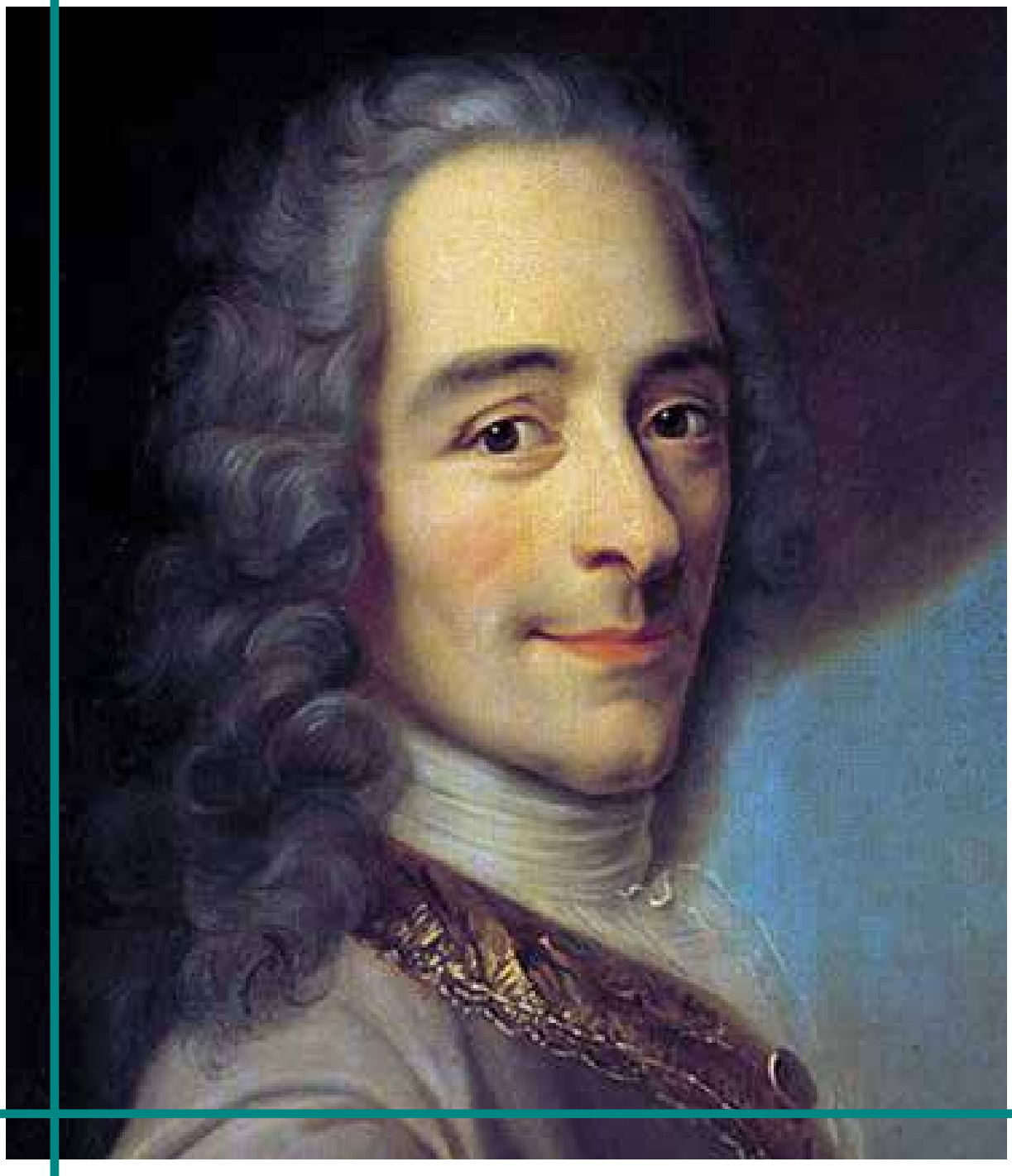

«تلك الواقعة أيقظت المجتمع من التعصب الديني ليدرك حجم المأساة المنتظرة إذا بقي المتعصبون يجوبون الشوارع»

التسامح غاية مطلوبة كي يتمّ الوصول إليها يجب اجتثاث كلّ مسببات التعصب الديني؛ فإذا كانت التنشئة الاجتماعية هي التي تنتج مواطناً متسامحاً، أو تنتج مواطناً متعصباً، والبيئة المجتمعية هي التي تقوم برعاية التطرف أو رعاية التسامح، والأفكار الحاكمة التي تشيع في المجتمع هي التي تفرض نمطها على الجماهير؛ فنشر التسامح يحتاج إلى اقتلاع جذور ومسببات التعصب الديني والتطرف من المجتمع، وإحداث القطيعة المعرفية مع أيّة فكرة أو قيمة تساعد على التعصب والتطرف، ودعم أفكار التسامح وتقبّل الآخر.

إنّ التعصّب مذموم ومهلك ومدمّر للمجتمعات؛ لأنه يمزق النسيج الوطني، والتسامح والتقبل يجعلان المجتمعات أكثر صلابة وأكثر قدرة على تحمّل الصعاب؛ فالتجربة الإنسانية واحدة، ولا حدود لها، وعلينا أن نتعلم منها، والتاريخ خير شاهد ودليل على صدق التجربة الإنسانية مع التعصب، وأول دليل نجده في قصتين؛ الأولى في فرنسا عام ١٧٦٢، والأخرى في القاهرة عام ٢٠١٢.

القصة الأولى: يحكيها فولتير في رسالة التسامح؛ ففي مدينة تولوز الفرنسية، تحديداً في آذار (مارس) العام ١٧٦٢؛ قتل مواطن فرنسي بطريقة همجية وتعصبية، في واحدة من أبرز الوقائع القميئة التي تندى لها الإنسانية، فقد كشفت هذه الواقعة سوءات التعصب الديني.

وفي تفاصيل الحكاية؛ كان جان كالاس مواطناً فرنسياً يمارس مهنة التجارة في مدينة تولوز، لنحو أربعين عاماً، وقد أجمع كلّ الذين عاشوا معه على أنّه كان أباً صالحاً، وقد كان يدين بالمسيحية البروتستانتية، هو وزوجته وأبناؤه، لكنّ ابنه الأكبر (مارك) قرّر العودة إلى الكاثوليكية، وأن يصبح اسمه (أنطوان)، وقد كان مارك مولعاً بالأدب، وعُرف عنه أنّه شاب مضطرب الذهن، ميّال إلى الاكتئاب، وأنّه حادّ الطباع، حاول أن يمارس التجارة فلم يفلح فيها، وخسر خسارة مالية كبيرة، ثمّ قرّر أن يكون محامياً، لكنّه فشل في الانضمام إلى سلك المحامين، لفشله المستمر في النجاح والحصول على شهادة بممارسة المحاماة، أو ما يثبت كاثوليكيته.

«انتصر الهوس الديني المسيطر على العقول والأرواح، فظنّ المتطرفون الهائجون أنهم يدافعون عن الدين»

اتّجه هذا الابن إلى لعب القمار، فخسر كلّ نقوده، وأسرّ لأحد أصدقائه أنّه قرّر إنهاء حياته، وقد كانت تعتصره لحظات الفشل حينها.

في إحدى الليالي، وإثر عودته من مدينة بوردو؛ زار أحد أصدقاء مارك (لافيس)، وهو شاب يبلغ من العمر التاسعة عشر، ابن محام مشهور، كان معروفاً بدماثة الخلق، وقد تناول طعام العشاء ليلتئذ على مائدة أسرة كالاس، بصحبة الأب والأم ومارك (أنطوان)، و(بيير) ثاني أبناء جان كالاس، وبعد العشاء؛ انتقل الجميع إلى غرفة الجلوس، عدا مارك الذي توارى عن الأنظار، وحين استأذن الفتى لافيس بالانصراف، رافقه بيير كالاس على الدرج، ففوجئ الجميع بمارك مشنوقاً أمام باب مخزن أبيه.

كان مارك يرتدي قميصه الداخلي، وسترته موضوعة على طاولة المتجر، ولم تكن على قميصه آثار تدلّ على تعرّضه لأيّ شدّ أو عراك، وكان شعره مسرّحاً، وجسده خالياً من أيّ أثر لجرح أو حتى كدمة، هنا صرخ جان، وهرعت إليه الأم، فما إن رأت ابنها البكر مشنوقاً، حتى صرخت صرخة سمعها الجيران.

سارع لافيس وبيير وكالاس إلى طلب الأطباء ورجال الشرطة، وفيما هم مشغولون بقتيلهم، تجتاحهم حالة اضطراب لا توصف، احتشد أهل تولوز حول البيت، وقد كانوا معروفين بأنّهم سريعو الغضب، متعصّبون للكاثوليكية، ينظرون إلى إخوانهم التولوزيين من البروتستانت على أنهم مسوخ بشرية، وبأنهم يقيمون احتفالاً كبيراً كلّ عام احتفاءً بذكرى مجزرة اقترفها السكان قبل قرنين من الزمن، راح ضحيتها أربعة آلاف من أبناء تولوز؛ أي إنّ مجتمعهم كان يثمّن شأن الانتقام الديني، ويدعم التعصّب، ويعدّه قيمة عليا.

صاح أحد المتعصبين من عوام الناس، معلناً أنّ جان كالاس هو مَن شنق ابنه مارك (أنطوان)، وتعالت الأصوات تردّد هذا الاتهام، وفي لمح البصر، اجتمعت المدينة كلّها على أنّ كالاس قتل ابنه البكر وفلذة كبده؛ لأنّه أراد أن يعود إلى الكاثوليكية!

«التعصّب مذموم ومهلك ومدمّر للمجتمعات؛ فهو يمزق النسيج الوطني، والتسامح يجعل المجتمعات أكثر صلابة وقدرة على تحمّل الصعاب»

تفلتت العواطف في تولوز تلك الليلة؛ مدفوعة بتعصّب ديني يجنح العقل عن الصواب، ويحيد عن طريق الحقّ؛ فبعد الاتهام، كان لا بدّ من سرد حكايات تلهب خيال العامّة، لتشتعل نار الثأر الدّيني المقدس، بعد أن نسجت العقول الغاضبة الجامحة حكاية منحولة تماماً، تقول إنّ البروتستانت في مقاطعة اللانغدوك عقدوا اجتماعاً موسّعاً عشية ذلك اليوم، واتفقوا على قتل الابن البكر، عقاباً له على عودته للكاثوليكية، واختاروا جلاداً يقوم بتنفيذ تلك المهمة، فوقع اختيارهم على لافيس، وهذا الأخير قدم سريعاً من مدينة بوردو، بعد تلقيه خبر انتخابه جلاداً، ليتعاون جان كالاس وزوجته وابنهما بيير على شنق ابنهم البكر مارك (أنطوان)؟!

طارت هذه الشائعة بسرعة البرق إلى جميع أنحاء تولوز، ووصلت إلى القاضي دافيد، الذي حرّكته الحميّة بسرعة، مخالفاً القواعد والأصول القانونية، فزجّ جميع أفراد أسرة كالاس، ومعهم لافيس، وكذلك الخادمة، في السجن، ومن المفارقات العجيبة؛ أنّ الخادمة كانت كاثوليكية متدينة، ورغم ذلك صحبت الأسرة فترة طويلة من الزمن، فهي التي تولّت تربية مارك (أنطوان).

غلبت العاطفة الحمقاء الحكمة، وخشي العقلاء من البوح بما تخفيه صدورهم ضدّ هذه الإجراءات التعسفية، وزاد الأمر تعصباً؛ إصرار المتشدّدين على دفن مارك (أنطوان) في حفل مهيب في كنيسة القديس اصطفان، رغم معارضة راعي هذه الكنيسة؛ لأنّ الميّت كان على مذهب كالفني، كما أنّه من المحتمل أن يكون منتحراً، وإن صحّ ذلك فيجب أن تُجرّ جثته في شوارع المدينة لا أن تقدَّس!

لقد حلّ التعصب الأحمق محلّ الدليل، في قضية كان من المستحيل إيجاد دليل مادّي واحد فيها ضدّ أسرة كالاس؛ إذ كان يجتمع ١٣ قاضياً يومياً لإنهاء هذه الدعوى، وأصرّ ٦ من القضاة على الحكم على جان كالاس وابنه ولافيس بالموت تحت التعذيب، وتحطيم عظام الأطراف، وأن تصعد زوجته إلى المحرقة. في حين طالب سبعة قضاة آخرين بالتحقيق معهم

فيما جرى، للتأكّد من الاتهام الجماعي، وقاضٍ واحد منهم فقط كان على يقين من براءة المتهمين، واستحالة الجريمة، فدافع عنهم وعارض التشدّد والتعصّب والقسوة.

بعد مقاومة قصيرة؛ انتصر الهوس الديني المسيطر على العقول والأرواح، فظنّ المتطرفون الهائجون والمؤججون نار التعصب، أنهم يدافعون عن الدين، فتمّ التصديق على حكم الإعدام بحق جان كالاس المسنّ، الذي تجاوز الثامنة والستين من عمره، الذي كان شبه عاجز بسبب تورم ساقيه.

لقد زلزلت هذه القضية المجتمع الإنساني في فرنسا، وأدرك الجميع خطورة التعصب الديني وخطورة الأخويات الدينية (الجماعات)، التي تنشر التقوى، وإلى جوارها التعصب والتطرف، تجثّ الناس عن لاحمة المسيح، وتمارس الإرهاب الديني على الآخرين، وأنّ بقاء تسلط رجل الدين وتعسّف رجال الحكم سيكون دماراً على المجتمع، وأدركوا أنّه لا أمل لهم في حياة سليمة وصحيحة وصحية إلا بنبذ العنف والإرهاب والتطرف، وأنّ أوّل خطوة هي نبذ التعصب الديني.

تلك الواقعة، إذاً، رغم كمّ الظلم الذي حملته؛ إلا أنّها جعلت المجتمع يستفيق من التمادي في التعصب الديني، وأن يدرك حجم المأساة المنتظرة، إذا بقي المتعصبون يجوبون الشوراع ليبثّوا أفكارهم، وينثروا بذور تعصّبهم وتطرّفهم وإرهابهم.

أشرف منصور
كاتب مصري

التسامح السلطوي والتسامح التعددي

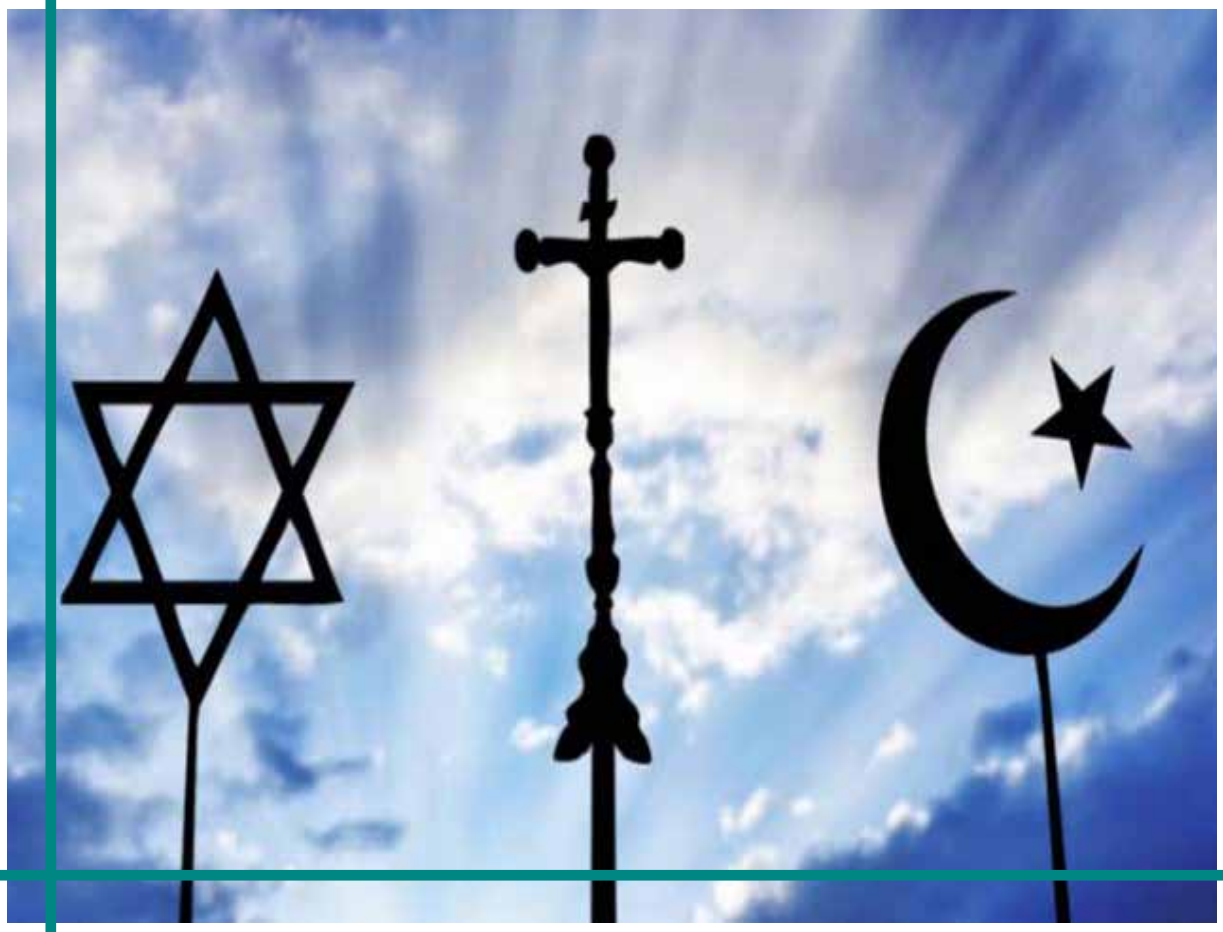

يوجد تصوران عن التسامح سادا عبر التاريخ، النوع الأول؛ هو تسامح دينٍ سائدٍ مع أديان أخرى، من منطلق سيطرته التامة المطلقة، وضمانه للأمان والاستقرار، بفضل عدم تشكيل تلك الأديان لأيّ تهديد له، هذا النوع من التسامح هو ما أسميه «التسامح السلطوي»؛ وهو يسود في الفترات التي تتعالى فيها المطالبات الاجتماعية، بإفساح المجال لشيء من الحرية الدينية، في ظلّ دينٍ سائدٍ، وكان هذا هو الحال مع الإسلام طوال تاريخه، ووفق المواقف الرسمية لرجال الدين؛ إذ يتم السماح بممارسة الشعائر الدينية لغير المسلمين من المسيحيين واليهود، مع عدم الاعتراف بحق أتباع الأديان، غير الإبراهيمية، بمثل هذه الحقوق.

والتسامح السلطوي، لا يقتصر على كونه الموقف الرسمي للمؤسسات الدينية، ورجال الدين، والحكومات الدينية؛ بل يمتدّ كذلك إلى عامة الشعب من المسلمين، الذين نجدهم يرددون عبارات تقول «إنّ الإسلام

«التسامح التعددي يجب أن يقوم على تعدديةٍ دينيةٍ تسمح بحريةٍ حقيقيةٍ للعقيدة والانتقال من دينٍ لآخر دون اضطهاد»

متسامح مع الأديان الأخرى»، هذا النوع من التسامح الاستعلائي، يستند على تصور امتلاك «الدين الحق» الذي يتسامح، بمعنى يتجاوز، ويغضّ الطرف عن أصحاب الأديان الأخرى، رأفة بحالهم، بدواعٍ من كرم الضيافة، والعلوّ الأخلاقي. وفي هذا السياق نفسه، تظهر العبارات التي توحي بأنّ أصحاب الديانات الأخرى يشاركون «معنا»، أي مع أصحاب الدين السائد، في الحقوق والواجبات. فتجد من يقول: «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا»، والعبارة، إن كانت توحي بالمساواة، والمشاركة في العيش في وطنٍ واحدٍ، إلّا أنّها استعلائية هي الأخرى؛ إذ هي تفصل وتميز، بين «نحن»، و«هُم»، وتبطن اعترافاً بانقسام المجتمع إلى هاتين الفئتين.

أما النوع الثاني من التسامح؛ فهو لا يأتي سلطوياً، من أصحاب اليد العليا، ومن قِبَل دينٍ مهيمنٍ؛ بل من قبل عملية تفاعلٍ، اجتماعي وسياسي، بين أديان، وطوائف، ومذاهب دينيةٍ كثيرةٍ، متنافسةٍ ومتصارعةٍ سلمياً، ومتواجدةٍ معاً في حيّزٍ اجتماعي واحدٍ. هنا ينشأ نوع من التسامح الديني الحقيقي، القائم على التعددية، بفعل تحييد الأديان لبعضها البعض، وفشل أي دينٍ، أو مذهبٍ واحدٍ منها، في السيطرة على جهاز الدولة، وفشلها كلّها في جعل الدولة مجالاً للصراعات الدينية، أو أداةً قمعيةً في يد قوةٍ دينيةٍ معينةٍ، ضدّ القوى الأخرى. هذا التسامح، إذاً، هو وليد التعددية الدينية الأصيلة، وهو تسامح ذو طابعٍ ديمقراطي حقيقي، وربما يكون طريقاً نحو الديمقراطية السياسية، في مقابل التسامح السلطوي الاستعلائي.

والحقيقة؛ أنّ نوع التسامح الوحيد الموجود في مجتمعاتنا، هو ذلك النوع السلطوي الاستعلائي، وذلك بسبب عدم وجود تنافسٍ ديني حقيقي بين الأديان والطوائف المختلفة، ذلك التنافس الذي لن تسمح به السلطات الرسمية، والممثلون المعتادون للدين السائد، الذين ينظرون إلى أتباع الأديان الأخرى على أنهم أهل الذمة. إنّ التسامح السلطوي يدخل في صميم مفهوم أهل الذمة؛ إذ يتم التعامل معهم بخصوصية طائفية، لا على أنّهم من صميم النسيج الاجتماعي، بل

«التسامح التعددي، يجب أن يقوم على تعدديةٍ دينيةٍ حقيقيةٍ تسمح بحريةٍ حقيقيةٍ للعقيدة»

على أنّهم جماعة قائمة بذاتها، منفصلة عن المجتمع السائد، ويتم التعامل معها تعاملاً خارجياً، باعتبارها لا منتمية، تتطلب خصوصية في التعامل، وحماية من نوعٍ خاصٍّ. إنّ التسامح التعددي الحقيقي والمساواتي، القائم على العيش المشترك، لن يقوم طالما تم التمسك بمفهوم أهل الذمة، ومفهوم الدين السائد، ولا شكّ في أنّ الدساتير التي تنصّ على دين رسمي معين للدولة، لا يمكنها أن تقدم سوى هذا النوع من التسامح السلطوي، فبمجرد أن تعلن الدولة تبنيها لدين معين، يصبح أتباع الأديان الأخرى مواطنين من الدرجة الثانية، ذميين، وفي هذه الحالة تختفي المساواة الحقيقية، وتبطل التعددية الدينية، التي هي الشرط الضروري للتسامح التعددي.

ومثلما شهد التاريخ حقباً عديدة ساد فيها التسامح السلطوي، فقد شهد، بالمثل، حقباً أخرى ساد فيها التسامح التعددي، لكن غالباً ما يأتي هذا التسامح التعددي على خلفية من حروبٍ دينيةٍ، أو اضطهادٍ دينيٍّ واسعٍ، ولدينا في هذا الشأن ثلاث حالات: هولندا في أواخر القرن السادس عشر، وفرنسا في القرن الثامن عشر وما يليه، والولايات المتحدة في القرن التاسع عشر. كانت هولندا جزءاً من أملاك المملكة الإسبانية، حتّى استقلت عنها في أواخر القرن السادس عشر، وذلك بعد انتشار البروتستانتية، وانفصال الكنائس الهولندية عن المذهب الكاثوليكي، الذي كان التاج الإسباني من رعاته الرسميين، جاء استقلال هولندا على خلفية الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، لذلك تأسّست الجمهورية الهولندية، في هذا العصر، على تسامحٍ دينيٍّ واسع النطاق، شمل عديد الطوائف البروتستانتية، التي لم تسمح كثرتها بسيطرة بروتستانتية على الدولة الهولندية، وقد صارت هولندا بلد التسامح عن جدارة، طوال القرن السابع عشر، حتّى أنّها سمحت بهجرة اليهود المضطهدين من إسبانيا والبرتغال، وأعطتهم حرية ممارسة الشعائر، وشيئاً من الاستقلال المدني.

أما في فرنسا؛ فقد ظهر تيار بروتستانتي قوي، متأثر بالكالفنية، منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، وهو تيار الهوجونوت (Huguenots). ولما

«نوع التسامح الوحيد الموجود بمجتمعاتنا هو النوع السلطوي الاستعلائي لعدم وجود تنافسٍ ديني حقيقي بين الأديان والطوائف المختلفة»

كانت الكاثوليكية الرومانية هي المذهب الديني الرسمي للدولة الفرنسية، فقد شهد الهوجونوت اضطهاداً واسعاً هناك، رغم سياسة التسامح التي اتبعتها الدولة الفرنسية تجاههم في بداية ظهورهم، وقد أدّت سياسية التسامح هذه إلى منح الهوجونوت (أعضاء كنيسة فرنسا الإصلاحية البروتستانتية) استقلالاً مدنياً وقانونياً وعسكرياً؛ إذ كان من حقهم تنظيم ميليشيات للدفاع عن أنفسهم ضدّ هجمات الكاثوليك، لكن سرعان ما سحبت منهم الدولة الفرنسية كلّ هذه المميزات، في عهد لويس الرابع عشر عام (١٦٨٥)، وانقلبت عليهم، فمرّوا باضطهادٍ لا مثيل له لطائفة بروتستانتية، وبعد سياسة التسامح الرسمي معهم، زاد الاضطهاد، حتى اضطروا للهجرة إلى الدول البروتستانتية المجاورة، ولم يتوقف اضطهادهم إلّا في أواخر عهد لويس السادس عشر، عام ١٧٨٧، ولم ينالوا المساواة والحقوق المدنية الكاملة إلّا بعد الثورة الفرنسية، في إعلان حقوق الإنسان والمواطن عام ١٧٨٩، لكنّ اللافت للنظر؛ أنّ اضطهاد الهوجونوت في فرنسا على مدى قرنين، كان من أهم دوافع ظهور عصر التنوير، الذي كان أغلب ممثليه البارزين فرنسيين متعاطفين من الهوجونوت؛ من بيير بايل، مروراً بفولتير وروسو، إلى كوندرسيه.

يتبين من هذا التاريخ المؤلم؛ أنّ الدولة طالما أعلنت عن تبنيها لدين وجعلته الدين الرسمي، لا يمكنها ممارسة تسامح حقيقي؛ إذ يمكنها أن تسحب حقوق الأقليات الدينية في أي وقت؛ بل إنّ مثل هذه الدولة هي التي تجعل من أتباع دين ما «أقلية دينية» من الأصل. إنّ الدولة التي تتبنى ديناً معيناً، هي دولة طائفية، ليس لأنّها تمثل طائفة دينية؛ بل لأنّها تنتج الحالة الطائفية ذاتها، بأن تجعل من أتباع الأديان الأخرى غير الرسمية «طوائف».

أما في الولايات المتحدة؛ فقد أدت كثرة المذاهب الدينية إلى تحييدٍ متبادلٍ لها؛ حيث لم يتمكن مذهب واحد من السيطرة؛ فالأديان الكثيرة في مجتمعٍ واحدٍ، تؤدي إلى إضعافها كلّها، ذلك لأنّ التعددية الدينية الأصلية للولايات المتحدة، ورغم

قـوة اليمـين الديـني المسـيحي لـدى الكثـير مـن الطوائـف، كانـت هـي الـشرط المسـبق لتسـامحٍ غـير مقصـودٍ، نشـأ تلقائيـاً دون تخطيـط مـن الدولـة.

التسـامح التعـددي، يجـب أن يقـوم عـلى تعدديـةٍ دينيـةٍ حقيقيـةٍ، تسـمح بحريـةٍ حقيقيـةٍ للعقيـدة، تلـك الحريـة الـتي يفهمهـا مجتمعنـا خطـأً، عـلى أنّهـا حريـة ممارسـة الشـعائر الدينيـة، في حـين هـي حريـة الاعتقـاد؛ أي حريـة الانتقـال مـن ديـنٍ لآخـر، دون اضطهـاد، ودون ملاحقـاتٍ أمنيـةٍ أو قضائيـةٍ.

ابراهيم غرايبة
كاتب أردني

كيف تنظر الديانات الكبرى إلى التسامح؟

يقدم كتاب «التسامح: النظرية والبحث والممارسة»، الصادر بنسخته العربية عن المركز القومي للترجمة، خلاصة مجموعة أوراق بحثية، قُدّمت خلال لقاء علمي مشترك ضم علماء وباحثين في مجالات التربية وعلم النفس والفلسفة والتاريخ، وسنركز هنا على عرض الجزء المتعلق بالمنظور الديني للتسامح، ولعله يكون فرصة أخرى لعرض الجوانب السيكولوجية لهذه القيمة الإنسانية.

المنظور الديني للتسامح

يمكن أن تسهم المنظورات الدينية للتسامح في إلقاء الضوء على كيفية تأثير الدين في العمليات النفسية المتضمنة في هذه الممارسة، وقد طلب من خمسة باحثين متخصصين، كل واحد ينتمي إلى دين من

«يمكن أن تسهم المنظورات الدينية للتسامح في إلقاء الضوء على كيفية تأثير الدين في العمليات النفسية المصاحبة»

خمسة أديان كبرى؛ اليهودية، والمسيحية، والإسلام، والهندوسية، والبوذية، أن يجيبوا عن الأسئلة التالية:

* كيف يعرف التسامح في ضوء تعاليم دينك؟
* ما الأساس الإلهي للتسامح وفقا لتعاليم دينك؟
* إلى أي مدى يعد التسامح مهماً أو محورياً في تعاليم دينك؟
* هل التسامح في ظل تعاليم دينك مشروط بإبداء المسيء أسفه؟
* هل يستوجب التسامح التصالح مع المسيء؟ هل من المحتمل التسامح مع عدم التصالح؟

تستخدم الديانة اليهودية مصطلحي «العفو» و«الاعتذار» عندما لا يكون هناك عقاب على المعتدي، أما التسامح فيتضمن إزالة الاعتداء، والتصالح يعني عودة الأمور إلى الوضع السابق، في العائلة أو الجماعة أو العمل، وقد يكون تصالح بدون تسامح. ويفهم التسامح في المسيحية على أنّه سلوك العفو أو التحرر من الإيذاء أو الإساءة أو الذنب، فيستلزم من الفرد المتسامح أن تكون لديه شفقة، وأن يحرر أي شخص أساء إليه من أي سلوك أو اتجاه سلبي، يعوق العلاقة القائمة بينهما، ومن الفرد الذي يُمنح التسامح (المسيء) أن يظهر علامات الندم على ما اقترف، وأن يظهر أيضاً سلوكيات تنمّ عن الأسف العميق والحب مجاراة للكرم الذي أظهره المتسامح. وقد عبّر القرآن الكريم عن التسامح من خلال ثلاثة مصطلحات: العفو، والغفران، والصفح. ويشير مفهوم التسامح في البوذية إلى الصبر والتخلي عن الغضب، ويعبر المفهوم في الهندوسية عن الشفقة والرحمة.

يمتد جوهر التسامح في اليهودية من معرفة الله تعالى وامتثال صفاته، فهو غفور رحيم، وتخبر التوراة أنّ من يتصرف برحمة مع الناس وسائر المخلوقات يرحمه الله تعالى، والعكس صحيح أيضاً. وتمثل الرحمة معنى أساسياً وجوهرياً في المسيحية؛ فالمسيح وهو يتألم دعا الله تعالى أن يرحم المسيئين إليه، فإنّهم لا يعلمون، وفي الصلاة يدعو المسيحيون «اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين». وقد مدح القرآن الكريم الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، وفي

البوذية فإنّ الكراهية لا توقف الكراهية، لكن بالحب نبلغ أهدافنا، وتعد صلاة التسامح وطلب الصفح في الهندوسية أساساً لتسامح الناس وصفحهم بين بعضهم بعضاً.

ويعتبر التسامح مركزياً في اليهودية، وتستمد هذه المركزية من أهمية يوم التكفير في الدين؛ إذ هو أكثر الأيام قدسية في السنة اليهودية، و«يسامحنا الله في هذا اليوم إذا سامحنا الذين أسأنا إليهم»، فتسامح الإنسان يشغل منزلة أساسية في اليهودية، ومنذ أن سامح إبراهيم «أفيميلكا» أصبح التسامح علامة مميزة في أبناء إبراهيم، ويعد التسامح محورياً في المسيحية، ويمثل إمكانية وواقعية حدوث تغير وتحول لدى الفرد في علاقته بالآخرين. وفي الإسلام فإنّ مسامحة الله تعالى للإنسان تعتمد على مسامحة الناس له على إساءته إليهم، ومقابلة الشر بمثله قد تكون شراً، وفي البوذية فإنه وإن يكن التسامح ليس محورياً فإنّ الصبر على الإساءة والشفقة على المحتاجين يمثلان سلوكاً محورياً، وفي الهندوسية فإنّه مطلوب ممن يتبع الدين أن يكون متسامحاً.

وفي اليهودية، كما الإسلام، لا يكون تسامح بغير أن يصفح من تعرض للإساءة، وإذا كانت الإساءة توجب العقوبة القانونية فلا يمكن منع العقوبة أو تخفيفها بغير الصفح، لكن أيضاً يجب أن يقرّ المعتدي

كتاب «التسامح: النظرية والبحث والممارسة»

بخطئه ويعتذر عنه ويطلب الصفح، وتعويض الضحية عن الضرر الذي لحق به، وأما في المسيحية فإنّ التسامح سلوك عام يلتمس المغفرة لكل مسيء، وكذلك الأمر في البوذية والهندوسية؛ إذ يكون الصفح والتسامح مستقلاً عن سلوك المسيء ومصيره أو اعتذاره أو عدم اعتذاره.

هل يستوجب التسامح التصالح مع المسيء؟

في اليهودية والإسلام لا يستوجب التسامح التصالح، ولا يتطلب التصالح التسامح، فقد أسامح المسيء ولكن أقرر أنّني لا أرغب أن أرتبط به بعد ذلك، وعلى أي حال لدينا الحق دائماً في أن نختار أصدقاءنا،

«تعد صلاة التسامح وطلب الصفح في الهندوسية أساساً لتسامح الناس وصفحهم بين بعضهم بعضاً»

وعندما يكون المسيء فرداً من الأسرة يكون هذا الحق أكثر تقييداً، فطبيعة الأسر تتطلب أن نبذل قصارى جهدنا لننسجم معهم، حتى لو لم نكن نحب فرداً محدداً في الأسرة بدرجة كبيرة، وتفرض الصداقات الطويلة علينا على نحو مماثل التزاماً أخلاقياً أن نبذل قصارى جهدنا للتغلب على الإساءة واستعادة العلاقة، فيستحق أفراد الأسرة والأصدقاء الطيبون هذا الجهد بفضل الدعم الذي قدموه لنا على مدى سنوات وتوليهم واجب الدعم المستقبلي، ولكن حتى في ظل هذه الحالات قد تتسبب بعض الإساءات في أن نرفض أن نتصالح مع الشخص الذي آذانا، على الرغم من أننا سامحناه بصدق وبوعي، ولا يتطلب التسامح على أي حال أن ننسى الإساءة، وبعض الذكريات تكون مؤلمة جداً بحيث لا تسمح بعلاقات حميمية أعمق، كما أنّه لا يتطلب حداً أدنى من اللطف تجاه أولئك الذين اقترفوا أشياء فظيعة في حقنا كذلك.

وعلى العكس قد أختار أن أتصالح مع شخص على الرغم من أنني لم أسامحه ويكون فشلي في أن أتسامح خطأً من جانبي إذا اجتاز المسيء عملية التراجع التي وصفناها آنفاً وإذا لم يتراجع المسيء، فعندئذ لن أكون ملزماً أن أسامحه وقد يحثني حبي للشخص وأملي في إقامة علاقات مستقبلية على أن أتصالح معه على الرغم من الأشياء التي فعلها معي.

في المسيحية لا توجد شروط مسبقة للتسامح، ومع ذلك يعد التسامح شرطاً مسبقاً للتصالح، وينبغي ألا يحجب المسيحيون أنفسهم عن إمكانية التصالح، ومع ذلك يجب أن نكون واقعيين في إدراك أن التصالح قد لا يحدث أحياناً. وأما في البوذية فعلى المرء أن يكون صارماً في ضبط انفعالاته وأفعاله، ولكن في الوقت نفسه ينبغي عليه أن يكون متسامحاً تماماً مع أفعال الآخرين ومتفهماً لها وخاصة الذين آذوه. وكما قال جاتاكامالا: معاناة الآخرين هي التي تجعل الناس الطيبين يعانون.

والخلاصة أنّ التعاليم الدينية يمكن أن تفيد في التدريب على التسامح، ويمكن أن يزود الاستماع كخطوة أساسية في الفهم الديني الباحثين الاجتماعيين باستبصارات نفسية عن طبيعة الخبرات الإنسانية تستحق على الأقل أن تستكشف.

محمد عزت
كاتب مصري

من سرق أنوار التسامح في المجتمع المصري؟

تعليق صغير شديد الهامشية ربما لا يذكره أحد الآن، يوثق لحظة كاشفة في تاريخ التنوير على ضفاف النيل. الأمر يقتضي رحلة قصيرة إلى القرن التاسع عشر، بين فلاحي مصر في الصعيد.

في خريف عام ١٩١٠، وأثناء الاستعمار البريطاني للبلاد، وتحديداً في شهر آذار (مارس)، جاء الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت إلى القاهرة ليلقي خطاباً في جامعتها، حاول خلاله أنْ يكون ودوداً عبر استخدام آيات قرآنية وأمثال شعبية باللغة العربية في سياق حديثه، ليمرر رسالته إلى الجمهور الحاضر من المصريين، وكان أهم ما قاله بشأن مطالب الشارع المصري في الاستقلال: «إنّ عملية تدريب أمة من أجل تجهيزها بنجاح لتحقيق الواجبات التي يتطلبها الحكم الذاتي هي مسألة لا يمكن إنجازها في عقد أو عقدين من الزمن، بل تحتاج إلى أجيال. ثمة أغبياء يعتقدون أنّ منح دستور على ورق، يسبقه إعلان رنان، يمكنه في حد ذاته أن يمنح سلطة الحكم الذاتي لشعب ما، بيد أنّ الأمور لا تسير على هذا النحو أبداً، فليس بمقدور أحد

أن يعطي شعباً حكماً ذاتياً.. أنتم تعرفون القول العربي المأثور إنّ الله يساعد الذين يساعدون أنفسهم (...) إنّ الصفة الرئيسية التي يجب على أي شعب التحلي بها هي التريث وعدم التسرع في الاستحواذ على سلطة غالباً ما سيساء استخدامها، بل اتباع خُطى بطيئة وثابتة وحازمة لتنمية تلك الصفات الجوهرية التي بها فقط يمكن للناس أن يحكموا أنفسهم، كحب العدل، والتعامل بصدق، وروح الاعتماد على النفس، والاعتدال».

وللصدفة، فقد أعقبت زيارة روزفلت مقتل رئيس الوزراء المصري المسيحي بطرس باشا غالي، لأسباب سياسية تتعلق بعلاقته مع سلطات الاحتلال، على يد طبيب صيدلي وطني شاب يدعى إبراهيم ناصف الورداني، والذي قال بعد القبض عليه إنه قتله؛ لأنه «خائن لوطنه»، فلم يكن للأمر أي بعد طائفي حينذاك، لكن روزفلت لم يفوت الفرصة ليرسل للمصريين المطالبين بالاستقلال رسالة مبطنة مفادها أنّ عليهم تعلم التسامح الديني قبل المطالبة بحق بلادهم، وقال: «لدينا، في الفيليبين (التي كانت خاضعة آنذاك للاحتلال الأمريكي)، مسلمون ومسيحيون، ونحن لا نقبل ولو للحظة واحدة أي اضطهاد من جانب طرف للآخر، أو أي تمييز من قبل الحكومة فيما بينهم، أو عدم تقديم العدالة ذاتها لكل منهما، ومعاملة كل رجل منهم حسب قدره كرجل، والتعامل معه كما يتطلب سلوكه ويستحق».

حين عاد روزفلت لوطنه بعد ذلك، وصف المصريين بأبشع التعبيرات العنصرية وقال لأحد الصحافيين في

« روزفلت خاطب المصريين: كي تمتلكوا قراركم بأيديكم، عليكم أن تتعلموا التسامح والاعتدال وتقبّل الآخر منّا أولاً»

الولايات المتحدة: «كان ينبغي عليكم أن تروا وجوه أولئك (الزنوج) وأنا أعنفهم (واستخدم تعبير كان يستخدمه البيض لإهانة السود في الولايات المتحدة وهو Fuzzy Wuzzies، لوصف المصريين). كانوا يتوقعون أنْ أقوم بتوزيع الحلوى عليهم، ولكنني قدمت لهم العصا الغليظة، وعندها أخذوا يتلوون، يا عزيزي، يتلوون».

كان خطاب روزفلت باكورة تدشين أفق في اللغة التي سيتعامل بها العالم منذ ذلك الحين، ليس مع المسلمين في مصر فقط، وإنما المسلمين في العالم كله، طوال القرن العشرين لتتفاقم وتصل إلى ذروتها مع القرن الحادي والعشرين، خطاب مفاده: «أنتم مراهقون وما زلتم بحاجة إلى النضج كي تمتلكوا قراركم بأيديكم، عليكم أن تتعلموا التسامح والاعتدال وتقبّل الآخر منا أولاً»، وللمفارقة فهؤلاء المسلمون الذين جاء الاستعمار ليعلمهم التسامح، يحكي أحدهم، وهو خلف بن المثنى، في القرن الثاني الهجري وتحديداً في البصرة بالعراق، أنه كان هناك مجلس يجتمع فيه من لا يعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة، وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سني)، والحميري الشاعر (وهو شيعي)، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوي)، وسفيان بن مجاشع (وهو خارجي صُفري)، وبشار بن برد (وهو شعوبي خليع ماجن)، وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبي)، وابن رأس الجالوت (وهو يهودي)، وابن نظير المتكلم (وهو نصراني)، وعمر بن المؤيد (وهو مجوسي)، وابن سنان الحراني (وهو صابئي)، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار. وبالطبع في نفس الوقت لم يكن ممكناً بأي حال أن يقام مجلس مثل هذا في أوروبا، إلا ربما لمحاكمة كل هؤلاء وحرقهم.

ومن هنا تطرح عبارات روزفلت في عام ١٩١٠ سؤالاً عن هل حقاً كان المصريون في ذلك الوقت بحاجة إلى دروس غربية في التسامح الديني؟ بالتفتيش في إجابة حول هذا السؤال سنبدأ في سرد ذاكرتنا التنويرية، والتي تشتمل على فقرة عابرة كتبتها امرأة بريطانية جاءت وعاشت في صعيد مصر قبل الاحتلال البريطاني، لتتنفس الهواء النقي

« حين عاد روزفلت لبلاده، وصف المصريين بأبشع التعبيرات العنصرية وقال لأحد الصحافيين في الولايات المتحدة «إنهم زنوج»!»

بعد إصابتها بمرض السل، بدلاً من هواء عاصمة الضباب وكتبت رسائل احتوت على ملاحظاتها القيمة بشأن الثقافة والدين والعادات في مصر.

وثّقت لوسي دوف جوردون في رسائلها لحظة تنويرية ربما يراها البعض بعيدة للغاية في واقعنا المعاصر فقالت: «إن أهالي قرية ببا في بني سويف ومعظمهم من المسلمين، انتخبوا جرجس القبطي عمدة لهذه البلدة، ويظهر أن المسلمين والأقباط على وئام تام، ويوجد في ببا ثلاث عشرة أسرة مسيحية مقابل عدد كبير جداً من المسلمين، ومع ذلك اختاروا جرجس عمدة لهم، وكانوا يقبلون يده طائعين، بينما كنا نمر في طرقات القرية».

في الواقع وبخلاف ما قاله روزفلت، لا يبدو من توثيق لوسي دوف جوردون لتلك اللحظة التنويرية في تاريخ صعيد مصر، أنّ

حديث الرئيس الأمريكي ومن بعده جيش من المفكرين والسياسيين عن أن المسلمين في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية كانوا مراهقين يحتاجون لدروس في التسامح والاعتدال الديني، صائباً إلى حد بعيد.

الواقع أنّ تلك البلدان ومنها مصر، التي استُعمرت فيما بعد، كانت تشق طريقها الذاتي والمختلف نحو التقدم والمواطنة القائمة على رغبة العيش بسعادة وتحقيق الذوات، وهو ما عكف بعد ذلك مجموعة من كبار المؤلفين والمنظرين على توضيحه وتوثيقه، وربما كان أهمهم على الإطلاق بيتر جران صاحب كتاب «الجذور الإسلامية للرأسمالية (مصر ١٧٦٠ - ١٨٤٠)»، والذي وضح فيه كيف أنّ مدافع الاستعمار حين جاءت أجهضت نواة النهضة والتنوير التي حملتها شرائح الطبقات الوسطى والتجار في القرن السابع عشر والثامن عشر، فقد استطاع جران في سفره ذائع الصيت أنْ يرصد جذوراً بازغة للرأسمالية والتطور في القرنين المذكورين، ويكفي ها هنا فهم الطابع الاقتصادي للمرحلة لفهم إمكانية تطور المجتمع ككل، فيذكر المؤرخ الاقتصادي الهولندي جان دي فريز، في كتابه حديث الإصدار نسبياً (كامبريدج ٢٠٠٨) «الثورة الصناعية: سلوك المستهلك والاقتصاد المنزلي، ١٦٥٠ حتى الوقت الحاضر» أن «التجربة الاقتصادية المصرية في زمن المماليك والعثمانيين تعتبر من أهم مظاهر ثورة تكثيف الإنتاج التي مهدت لقيام الثورة الصناعية الأولى، فالعمل والإنتاج اليدوي من المنزل في الريف المصري كان أول من وضع عملية الإنتاج المنزلي على خريطة الصناعة الوطنية».

البحث في ذاكرة تنوير منطقتنا في بعض الأحيان، لا يكون مضيئاً فحسب لسنوات قادمة محاطة بالضباب، وإنما أيضاً وفي حالات كثيرة مشابهة لما وصفته لوسي دوف جوردون في قرية ببا، يكون نوراً صادماً وموجعاً لأنه قد يدفع للتساؤل: «من الذي سرق كل تلك الأنوار»؟

سراج الدين الصعيدي
كاتب مصري

ما مدى تأثير الإعلام الرقمي في نشر ثقافة التسامح والتعايش؟

تلعب وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي دوراً كبيراً في تعزيز مبادئ التسامح التعايش السلمي والاحترام المتبادل وتقبّل الآخر وتفهّمه وحفظ الكرامة الإنسانية وتحقيق الصداقة بين البشر على تنوع واختلاف أديانهم ومعتقداتهم وثقافاتهم ولغاتهم.

واليوم، في ظلّ التواجد الواسع للتنظيمات المتشددة والمتطرفين على مواقع التواصل الاجتماعي واستغلالهم لانتشارها الواسع على مستوى العالم، نحن في أشد الحاجة إلى تفعيل مبدأ ثقافة التعايش والتسامح الديني، خاصة أنّ التقارب بين الأمم والحضارات والثقافات

الإمارات أخذت على عاتقها تعزيز ثقافتي التعايش والتسامح بين أكثر من (٢٠٠) جنسية تعيش على أراضيها، وتحظى بالحياة الكريمة والاحترام

أصبح واقعاً كبيراً بفعل ثورة الاتصالات التي جعلت العالم (غرفة واحدة) يستوطنها الجميع، مُزيلة كافة الحواجز الزمانية والمكانية بين الجماهير الغفيرة المتباينة.

وكانت صحيفة الوطن الخليجية قد حددت عدداً من الاستراتيجيات الإعلامية للتعامل مع خطاب الكراهية، عبر الإعلام ومواقع التواصل، وهي: اعتماد لغة الحوار الحضاري، وتعزيز ثقافة الاختلاف، واعتماد الخطاب المتصالح وتجنب الخطاب الانفعالي، ونبذ لغة الكراهية والابتعاد عن التحريض، ونشر القيم الإنسانية الجامعة، هذا بالإضافة إلى تصحيح الصور النمطية (الدينية) وضبط المصطلحات، والتوقف عن استخدام مصطلحات ملغومة يراد بها العنف والتحريض الديني والعنصري والطائفي والمذهبي، ووقف تغذية الصفحات والتطبيقات الإلكترونية فيها.

ويُعتبر التسامح، في الوقت الحالي، من أهم المواضيع التي يجب التركيز عليها؛ نظراً لدوره الكبير وأثره الإيجابي والفعّال في ظل ما يواجهه العالم من مشكلات عديدة وأزمات وحروب انعكست آثارها السلبية على البشرية جمعاء، وجعلت العالم بأسره بأمسّ الحاجة إلى التسامح بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، والعمل على تطبيقه قولاً وفعلاً، ويُعدّ ضرورة حتمية لتحقيق مصالح الأفراد والمجتمعات ككل.

ووفقاً لمقالة نشرتها صحيفة البيان الإماراتية للكاتبة فاطمة عبد الله الدربي، فإنّه لنشر التسامح بالمعنى الصحيح «نحتاج لمواقع تواصل اجتماعية ملتزمة

« للتعامل مع خطاب الكراهية يجب اعتماد لغة الحوار الحضاري وتعزيز ثقافة الاختلاف، ونبذ لغة الكراهية، والابتعاد عن التحريض ونشر القيم الإنسانية الجامعة»

بالمبادئ والخطوط العامة للإنسانية، البعيدة كلّ البعد عن الكره وعن تكفير الآخر وعن التصنيفات المتعلقة بالديانة أو بالطائفة».

وأضافت الدربي: «وذلك يكون ببث رسائل توعوية تستهدف تعزيز قيم التسامح عبر الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي وترسيخ آداب وأخلاقيات التصرف المسؤول في استخدام الإنترنت واحترام الطرف الآخر وتجنب الإساءة للآخرين، والابتعاد عن السلوكيات السلبية في استخدام الفضاء الرقمي، وتجنب خطاب الكراهية وسلوكيات التمييز والعنصرية وإثارة النعرات الطائفية والدينية، واحترام خصوصيات الآخرين، والتسامح تجاه ما يصدر من الآخرين والإيجابية في التعامل، والحرص على تقديم الأفضل».

وبحسب دراسة لمركز ترينـدز، فإنّ التعايش والتسامح نموذجان ثقافيان، وهما مبدآن إنسانيان يطمحان إلى توفير سياق إيجابي للتعايش السلمي بين أفراد المجتمع، وهو فكر يواجه كلّ ما هو متشدد ومتطرف.

لذا، ففي الأوقات التي يسودها الخوف من التطرف والإرهاب يسعى العديد من الدول والمجتمعات لتأمين الأفراد وتحصينهم من هذه الآفة، من خلال نشر قيم التعايش والتسامح وثقافتها وتعزيزها بين الأفراد بمختلف جنسياتهم، وأعراقهم، وأديانهم ومعتقداتهم، وفق ما أورده الكاتب سلطان حميد الشامسي، في مقاله «التعايش والتسامح... جذور متشابكة».

ولفت الشامسي إلى أنّه من دون ثقافتي التعايش والتسامح سيصبح الإنسان منغلقاً تماماً عمّن حوله، ومنعزلاً ثقافياً وفكرياً، وبالتالي قد يتحول هذا الانغلاق والانعزال إلى تطرف وتشدد بكلّ سهولة، مؤكداً أنّ أهمية التعايش والتسامح تأتي في أنّهما يمثلان العوامل الرئيسية لتحقيق الأمن والاستقرار والتنمية في أيّ مجتمع.

الإعلام الرقمي يمكن أن يُستخدم من قِبل محاربي قيم التعايش والتسامح من جماعات متطرفة لبث الكراهية والعنف

وتابع الكاتب: «ومن هنا تأتي أهمية اللجوء إلى الإعلام الرقمي الذي من الممكن أن يكون الوسيلة الأكثر نجوعاً وتأثيراً، لأنّه وسيلة نقل حيوية للمعلومات والآراء تتجاوز جميع الحدود الجغرافية، ومنصة في غاية الأهمية لتثقيف الأفراد وتشكيل العقل الجمعي الإلكتروني الذي يرتد ليعكس خصائصه على سلوك أفراد المجتمع، ولذا فإنّه من أهمّ وسائل تحقيق التعايش والتسامح في وقتنا الحاضر».

وفي سياق تعزيز قيم التعايش والتسامح، قالت البوابة الرسمية لحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة: «إنّه يمكن أن يكون الإعلام الرقمي وسيلة يتمّ من خلالها تفكيك الخطابات المتطرفة والأفكار التي لا تتفق مع قيم التعايش والتسامح، ونشر قيم السلام والوئام. وفي هذا الصدد تمثل الإمارات نموذجاً يشار إليه بالبنان في العالم، حيث أخذت على عاتقها تعزيز ثقافتي التعايش والتسامح بين أكثر من (٢٠٠) جنسية تعيش على أراضيها، وتحظى بالحياة الكريمة والاحترام. وفي تموز (يوليو) ٢٠١٥ أصدر رئيس الدولة الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان مرسوماً بشأن مكافحة التمييز والكراهية، وتمّ إنشاء «المعهد الدولي للتعايش» و«مركز هداية»، و«مركز صواب»، لنبذ الطائفية والتعصب القومي والديني.

« لنشر التسامح نحتاج لمواقع تواصل اجتماعية ملتزمة بالمبادئ والخطوط العامة للإنسانية، البعيدة عن الكره والتصنيفات المتعلقة بالديانة أو بالطائفة»

ويمثل عرض ثقافات الشعوب الأخرى وخبراتها في التسامح والتعايش واحداً من أهمّ الفرص التي من الممكن أن يوفرها الإعلام الرقمي أيضاً، وخير مثال على ذلك ما فعلته دولة الإمارات العربية المتحدة خلال أسبوع التسامح في إكسبو ٢٠٢٠، الذي أقيم في دبي بين عامي ٢٠٢١ و٢٠٢٢، والذي عرض من خلاله تجارب بعض الدول وخبراتها في التسامح والتعايش، وفق وكالة الأنباء الإماراتية (وام).

أمّا التحديات التي قد تواجه تعزيز ونشر التسامح عبر الإعلام الرقمي، وفقاً لدراسة مركز ترينـدز التي أعدتها الباحثة نوف يعقوب السعدي وجاءت بعنوان «فرص التعايش والتسامح وتحدياتهما في ظل الإعلام الرقمي»، فتتمثل في إمكانية أن يستخدم الإعلام الرقمي من قِبل محاربي قيم التعايش والتسامح من جماعات متطرفة لبث الكراهية والعنف من خلال الخطابات التأجيجية التي تثير القلاقل بين مختلف الأديان والجنسيات والأعراق.

وأضافت الدراسة أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ الإعلام الرقمي قد أسهم بدرجة كبيرة في عولمة التطرف، وأنّ تصاعد أنشطة الجماعات المتطرفة والتنظيمات الإرهابية في الفترة الأخيرة كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالإعلام الرقمي، فالجماعات المتطرفة نجحت في استغلال هذا الإعلام بفعالية في عمليات التجنيد والدعاية لإيديولوجياتها والتنسيق فيما بينها، ممّا كان مصدراً مهمّاً يتغذى عليه الاحتقان الطائفي والمذهبي، وقد لجأت التيارات الفكرية التي ترفض قبول الآخر إلى الإعلام الرقمي (يوتيوب،

« العديد من الدول والمجتمعات تسعى لتأمين الأفراد وتحصينهم من التطرف والإرهاب، من خلال نشر قيم التعايش والتسامح وثقافتها وتعزيزها بين الأفراد»

فيسبوك، تويتر... إلخ) لأنّه وسيلة سريعة لإيصال رسائلها وكسب عدد من المتعاطفين والأتباع الجدد، خصوصاً من الشباب، ونشر ثقافة رفض الآخر وعدم القبول به أو التعايش معه.

ومن التحديات التي تواجه التعايش والتسامح في الإعلام الرقمي، وفق الدراسة، استغلال بعض التيارات الفكرية هذه المنصات لإثارة النزاعات الطائفية والعرقية؛ حيث يستخدم بعضهم منصات الإعلام الرقمي مثل؛ مواقع التواصل الاجتماعي لتفكيك أيّ مجتمع مترابط، ممّا يُشكّل تحدياً كبيراً لنشر ثقافتي التعايش والتسامح وتفعيلهما في المجتمعات، فالإعلام الرقمي بات متاحاً لجميع، للواعي وغير الواعي، وللمثقف وغير المثقف، وللمُحصّن فكرياً وغير المُحصّن فكرياً. إنّ الفرد غير الواعي يتمّ اختراق اعتقاداته بسرعة كبيرة والتأثير فيه بسهولة باستخدام وسائل الإعلام الرقمي، وفق الدراسة.

ومن هنا فإن دور وسائل الإعلام الرقمي فيما يتعلق بالتسامح والتعايش سلاح ذو حدّين، وإنّ تأثيرها يتوقف على أهداف وغايات المستخدم، وعلى درجة وعي المتلقي.